

الفردوسي وشاهنامته

وعظيم تأثيره في التاريخ واللغة والأدب الفارسي

رأيت ان اتقدم بنصيي الى قراء العربية وأدبائها الكرام من الافضاء ببيان عن الشاعر الابراي العظيم الفردوسي وشاهنامته في الوقت الذي تقام فيه الحفلات وتمقد المؤتمرات الادبية ومحتفل العلم والادب والانسانية بمرور الف عام على ذكره القدسية . وارى قبل المحوض في بيان عن ذلك الشاعر الخالد وقبل مراجعتنا الموضوع ان أظرفه بالقارئ قليلاً في عوالم اللغة الفارسية وآدابها وتاريخها . ان اللغة الفارسية الحاضرة ناشئة الى حد ما عن اللغة البهلوية التي ترجع الى اللسان الفارسي القديم المسمى (أريا) او الفارسي الباستاني ، وقد انشبت هذه من اللغة (الآرية) الأصلية ، ولذلك نجد الدولة الفارسية تعرف باسم (ايران) اشتقاقاً من الكلمة الاصلية (آريان) حيث ان لفظة « يان » هي علامة الجمع بمثابة الياء والنون في جوع اللغة العربية ، اما لفظ فارس فهو محرف في التعريب عن كلمة (پارس) الباقية بحالتها الراحنة في بعض اللغات الآرية الحاضرة . اما في اللغة الفارسية فيسمونها (پارسان) وهي كلمة مخففة عن كلمة پارسيان وكذا يسمى برس المخففة عن پارس وقد ظلت اللغة البهلوية محافظة على صبغتها في الخط والقراءة الى ما بعد الاسلام بقرنين او ثلاثة قرون وعنها تنقل ما بقي من تاريخ الايرانيين وآدابها الى اللغة العربية ثم اصبحت بعد ذلك الى القرن الخامس لفة دينية عند اردشئين مقصورة على جماعة الموبد والموبدان كهنة زردشت وكذلك من تعلمها من علماء الاسلام كابن سينا والبيروني وابن المقفع وغيرهم وبذلك طاشت هذه اللغة بعيدة عن تناول العامة . اما اسلوب طريقة الخط في هذه اللغة فقد بقي الى اواخر القرن الأول بعد الاسلام وتشهد بذلك مسكوكات من النقود كان التعامل جازياً بها عند العرب منذ الجاهلية وقد نقلت كتابة الدواوين بها من الفارسية في عصر عبد الملك الى العربية واهمل الخط البهلوي وشغل مكانه الخط الفارسي الحاضر الا ان اللغة الفارسية بوجه عام بقيت في ميدان الخطابة والكلام الى ان طادت ثانياً ميداناً للعلم والادب بعد الاسلام

﴿ الشعر الفارسي ﴾ الشعر الفارسي قديم على ما يظهر حيث كانت الموسيقى فنّاً تلازم الحضارة الإيرانية في ملها وفي حروبها ومعلوم ان الموسيقى تلازم الشعر وتلازمها في سائر خطواتها فلا بد ان يكون لهم مقطوعات تسير الغامها وكلمات مرزونة تجاري اوزانها وفي عهد الساسانيين كما ذكر في تاريخ الادب الابراي لبعض الادياب المعاصرين كان للموسيقى وزير خاص ووجد في ذلك العصر أعظم المغنيين وفي مقدمتهم باربدنكيسا باشاد فان اردشير مؤسس الدولة الساسانية قسم رجال الدولة الى ثلاث طبقات ممتازة كان للموسيقيون إحداها حتى بلغت عنايته بذلك مما حدثوا عن تقسيم النغمات الموسيقية

على ايام الاسابيع وعلى فصول السنة واواخر الشهور واحتلاف الليل والنهار وبقيت بعض المصطلحات الموسيقية انى مابعد الاسلام في كتب الموسيقى والادب والنغمة وجرت بذلك السنة الشعراء في الاسلام ومن قرأ رسالة الفارابي في الموسيقى والمحاسن والاضداد للجاحظ وجد بعض مصطلحات موسيقية فارسية قديمة مثل زيرا المكندتهفت زير كندم توروز ومن هذا الرقي الموسيقي على اختلاف العصور يتبين لنا ان الشعر كان ملازماً للموسيقى وان لم تكن له الاوزان الخاصة الجارية ولكن على كل حال كان يرتكز على اوزان اخرى يمكن تطبيقها على اللغات الموسيقية التي كان لها القلم الراسخ في مرافق الدولة الابرانية وما يبدل على ثبوت الشعر الفارسي ما نقل في شرح ادب الكاتب لبطليموس ان طليحة الاسدي من اشرف العرب اتى الى بلاط كسرى خسرو پرويز في مهرجان العيد فرأى مغنياً ينشد اشعاراً عربية فلما ترجمت لكسرى لم ترقه واخذ مضمناً فارسي يرجع غنائه فطرب للملك وتناول الراح. وما يبدل على علم الايرانيين بالشعر واهتمامهم به ماروي ابن قتيبة في كتاب الشعراء ان كسرى اوشروان سمع بأل الاشئى ينشد هذا البيت

ارقت وما هذا السهاد المورق وما لي من سقم وما لي معشق

فقال اوشروان ، ما يقول هذا العربي ؟ ورغب في ترجمة البيت فلما فهم قال اذا لم يكن طامعاً ولا مريضاً مع سباهه فلا بد ان يكون لساناً

وقد بين ابن المقفع في مقدمة كتيبة ودمنة ان في اليوم الذي جاء فيه بزويه بكيلة ودمنة امر باقامة حفل احتفاء ببزويه وكتابه وكلف الشعراء والخطباء ان يتحدثوا عن مزايا اليوم وفي هذا دلالة على ان الشعر كان دائماً بين الايرانيين قبل الاسلام. اما مبدأ حياة الشعر في العصر الاسلامي فقد اختلفت الآراء في اول شاعر قيل انه أبو العباس الروزي. وقيل انه أبو حفص احوص السعدي السمرقندي وقيل انه حنظله باد غنسي وليس في الوقت ولا موضوع المقال منسج لتتحقيق ذلك

وما خلا خلاف عليه ان اول شاعر بكل معنى هذه الكلمة ، والذي رويت وحفظت عنه اشعار جيدة بقيت في عيون القراء هو الودكي الذي نظم كتيبة ودمنة وكان مغنياً بارعاً مكثرآ من نظم الشعر وكان كفيف البصر ولم يرض على بله الشعر الفارسي الا بضع قرون حتى نبغ شعراء ضروا اعظم الامثال في مضمار التخيل والتفكير وفي براعة الاداء والتصوير وخلدوا في صحيفة الادب الفارسي فساندهم ومقطوهم التي شهد العالم بعظمتها وحموم مكانها وفي مقدمتهم الشاعر العظيم حكيم ابو القاسم الفردوسي الذي كان من اكبر العوامل في نهضة اللغة الفارسية وادائها الحديثة واسترداد مكانها العالمية بين الآداب واللغات الحية

﴿ الشاهنامه وعظيم تأثيرها في اللغة والآداب الفارسية ﴾ الشاهنامه هي المرجع المهم في التاريخ والآداب الفارسي لجميع الأدياء والمؤرخين ، مرجع سهل على المتأخرين سبيل الشعر وهو كنز اللغة الفارسية وقلموسها الرحيب فليس هو كتاباً تاريخياً يشتمل على ذكر الملوك

والابطال وقضايا ايران وحوادثها الماضية حسب بل هو محتوي على اغلب فنون الادب فقيه حكمة وغزل واخلاق، كما ان فيه قصص الحروب والابطال وجميع نواحي العواطف الانسانية من حب وهيام على ان ملحة الشاهنامه لا تكفي من الحوادث بسردها فقط ولكنها تربط العطل بمعلولاتها والآثار بمؤثراتها وتفسير الاسباب الطبيعية في سائر القضايا وتحدث عن الخصال الاجتماعية ولا تكاد تبدأ بقصة او تحتها حتى تتوجها بالعبرة وتحد من الاضطرار بالدنيا والركون اليها وتقرنها بما يلائمها من النصائح المناسبة لوقائها المشاكلة لحوادثها وكل هذه القصص ذات الاعداد الرائعة والقضايا للمتسلسلة والحقائق العالية والافكار الرحيمة يجلبها في اوضح مجاريها او يخرجها في اصدق صورها فتجد القصة مكتوبة منظومة ونحس بها كأنها واقعة مشاهدة تراها رأي العين وتتحقق من مناظرها وابطالها كأنك تعيش معهم ونحيا بينهم في اسلوب قريب ايضاً تتعشق كل نفس ويستمره كل ذوق وهذا ما جعل الشاهنامه نشيد الخاصة والعامة على السواء واتخذ أئیس المحافل فهو يسمت كرامن العواطف والاحساسات ويحمل النفس على التحلي بالشجاعة وركوب الاخطار وقوة المزيمة والاصطبار على نوائب الايام وقد اجمع علماء الشرق والغرب على رأي واحد تجاه الشاهنامه هو اعتبارها أدباً طليئاً وشعراً في اسمي طبقة لم يتوجه اليه احد بنقد ينال من سمائها عدا البروفسور براون في مؤلفه فقد ذكر في مؤلفه في الادب الفارسي ان الشاهنامه ليست في المستوى العظيم من الشعر ثم انه لا يمجدها مكانها في اللغة والادب والتاريخ . على ان مستر براون هو الذي انقرد بهذا الشذوذ وهذا التفرد الغريب في تقدمه ، ولكن اجماع علماء الامم وادباء العالم مع تباين الادواق والنزعات على تقديرها والحفاوة بها هو اعظم رد على نقد المستر براون واكبر رهان على القيمة التي حازها الفرديسي وليس يضار به بعد ذلك شذوذ فرد وانفراد رأي . على ان كل شعب اعلم باده وخصائص الشعر فيه واقدر على التمييز بين الغث والخبث فان ألحانه الفنية تقتضي امتزاجاً تاماً بالبيئة التي صدر عنها ذلك الفن ونشأت فيها تلك الصور الادبية وليس من شك في ان مثل براون يعوزه الاتصال الكافي بالدرس من جهات عديده . فمع احترام رأييه فان هذا الرأي خارج عن الصواب ولا سيما اذا لاحظنا ان شعراء عديدين حاولوا تقليد الفرديسي ولفظوا الحوادث والملاحم فابلغوا شأوه ولانلقروا من محاسنهم بطائر ونحن لاننسى ان كل بيت في الشاهنامه هو بيت القصيد فان شعراً جامعاً مثل هذا الكتاب فبا حوى من حوادث وقصص واسعة الاطراف لا تخلو ان تكون بعض اشعاره خيراً من بعض واعتراف الشعراء انفسهم وهم اولى الناس بتقدير فتيهم ، فيه غناء عن الدفاع عن مقام حرمها

وهذه ترجمة بعض نواحي الشعراء في حق الفرديسي . يقول حكيم الانوري ما ترجمته :
 مرحباً بشاعر الفرديسي في مقامه النوراني الرفيع فاكأن الفرديسي استاذاً ونحن تلاميذه بل كان
 اله الشعر ونحن عبده . ثم يقول ابن ميني : ان الطابع الذي نقشه الفرديسي على دنائير الكلام لم يتبع
 لشاعر فارسي انه كلام هبط من الثريا الى الثرى فصاعد الفرديسي ورفعته من الثرى الى الثريا

يقول النظمي : التردوسي هو الشاعر التاريخي والعالم الطوسي هو الذي زين بالشعر وجه الكلام كما

زين بلخي وجه العروس

ثم قال السعدي ما اجل اقوال التردوسي الطاهر الاصل فلتهبط شأبيب الرحمة على تزييه الطاهر
﴿ ترجمة من الشاهنامه ﴾ لعل أكثر ما يحتم له الاديب معرفة رأي هذا الرجل العظيم في

الحياة وهاهي ترجمة بعض كلماته الحكمية والاخلاقية التي تتضمن رأيه فيها ايضاً

ماذا تريد من الحياة الطويلة المدى وهي مقفلة الامرار والغرب فشيء تربيك اولاً بشهد

اللذات ولا تسمعك الأرق النهايت فتظنها قد بذلت لك كل حبا وهي لا تبس في وجهك فانت

بها فرح تبذل لها ودائع قلبك واسرار نفسك ثم تلعب معك دوراً بعد ذلك يترك قلبك دامياً

هكذا هذه الحياة المنقضية فلا تفر فيها الا بذور الخير

تعال بنا ، لا نردع هذه الحياة بسوء ، ولكن مجدين في ان نال منها يد الخير ، لاشيء من الخير

والشر يبقى ابدياً ، فاجل بنا ان يكون الخير هو الذي بعدنا ، ان كثر الدناير وقصور التعب لن

تكون لك نفاعه ولكن الكلام هو الذي الآتية فلا نظن الكلام امرأ هيناً

ان اتريدون فرح ما كان - ملكاً ولا كان مخلوقاً من ملك وغير

ولكن بالعدل والجلود وجد هذه الذي فكن جواداً طالاً تكون انت اتريدون

اني أحب من الحياة زاوية اجد واجتهد فيها لجمع زادي لا تؤذي غلة تخر الحبة الى قراها

فان لها روحاً والروح حلو لذيذ انه الحجري القلب اسود من تكون غلة منه في ضيق

أيتها الحياة كلك وهم وانتماخ لا يكون العاقل بافعالك طروباً اذا نظرت الى افعالك

لا اجد فيها الا خيالاً وما سن الذي يحسن الذكر الجليليك ترا حواء أعبداً كان أو ملكاً

لا تركز الى هذه الحياة ولا تأمن بسرارها فان لها في كل حين طرازاً من التعب جديداً

ترفع واحداً من مجرى الامساك الى مسرى القصر ونحفض الآخر من السلة الى الهاوية

لذ الحياة عبرة وحكمة فلماذا يكون نصيبك فيها الغلة لقد أكثرت تشاغلك بالحياة وحرصك عليها

حتى مضى اصحابك عنك وبقيت وحدك في تشاغلك

انظر بيناً ويساراً ولا أعرف اول الدهر من آخره هذا يعمل سرور فتأته الحياة عنفراً ذلولاً

وآخر يعمل الخير محضاً فلا يلقي منها الا كندراً لا تؤذي روحاً ولا تعذب منك قلباً

فان هذا الدهر ليس ابدياً كما انك ليس صالحاً كان كذلك وميضي هكذا

هكذا يصنع هذا القلب المهرم يأخذ من الرضيع ندى أمه

[البقية في باب الاخبار الطيبة]

[بقلم مرتضى الحسيني القاضى الايرانى]